مراحل الرأسمالية المعاصرة، كان لا بد للفلسطينيين الذين استطاعوا البقاء في الأرض، لسبب أو لآخر، وهم يحملون الملامح المجتمعية شبه الاقطاعية، أن ينتقلوا للعيش مع مجتمع آخر يتسم بخصائص أخرى، وأن يضطروا للتعايش مع هذا المجتمع بسماته الاجتماعية والاقتصادية. وإزاء ذلك، كان من الطبيعي جداً أن يحدث التقاء المجتمعين تغييراً كبيراً في الحالة الاقتصادية والاجتماعية والصحية والتعليمية للمجتمع الفلسطيني. غير أن هذه التغيرات لا تحدث تغييرات في وعي الناس وأعرافهم وسلوكهم بميكانيكية بحتة، وبنفس مستوى السرعة التي تحدث فيها التغيرات الاقتصادية نفسها؛ فغالباً ما تكون عملية التحول، في وعي الناس، أبطأ، على الأخص وان وعي الناس لا يتعرض فقط للتغيرات الاقتصادية وحدها، لكنه عرضة، دائماً، لتأثير مجمل التحركات الأخرى سواء كانت اقتصادية أم اجتماعية أم ثقافية.

يقول رفائيل سالاس، وكيل الأمين العام للأمم المتحدة: «... ان معدل نمو السكان السنوي في البلدان الأقل تقدماً سوف يظل أعلى من ٢٪ حتى نهاية العقد الحالي، وان عدد سكان العالم سوف يزيد، خلال العقدين المتبقيين من هذا القرن، ما يقرب من بليوني نسمة. وسوف يكون ٩٠٪ من هذه الزيادة في البلدان الأقل تقدما.

«وحتى سنة ٢٠٠٠، سوف تحدث أكبر زيادة في عدد السكان في المناطق التي حدثت فيها منذ سنة ١٩٥٠ لغاية سنة ١٩٨٠، اي في المناطق التي تعتبر الأفقر في العالم...»(٧).

وما هو متعارف عليه، وهو ما يقرّه علم الديمغرافيا، ان الزيادة السكانية الطبيعية هي احدى السمات الرئيسية للمجتمعات المتخلفة، وانها تركة ثقيلة الوطأة ورثتها هذه المجتمعات عمن قبلها. فمجتمعات ما قبل الرأسمالية التي تميزت بمستويات متدنية لوسائل الانتاج، كان الأولاد وسيلة انتاج أساسية فيها، كما أنهم يمثلون، في مثل تلك المجتمعات، الضمانة الاجتماعية للأبوين عند الشيخوخة، وعنصر أمن رئيسياً للعائلة في المجتمعات القبلية التي يتحدد مقدار وجاهتها على عدد ما فيها من الرجال، وقد اكتسبوا هذه المكانة بسبب سيادة قانون الصراع القبلي وانعدام السلطة المركزية. لكن هذه المجتمعات المتخلفة إقتصادياً واجتماعياً، بفضل علاقتها مع الاستعمار ومع الدول الرأسمالية، اكتسبت، حتى في ظل هذه العلاقة الاستغلالية، ملامح تطور ملحوظ. وهذا التطور الذي نجم بفعل علاقات أملتها عوامل خارجية، أخذ يضعف معوقات الزيادة الطبيعية في السكان، ذلك ان تحسن الأوضاع الاقتصادية والصحية يقلل، بشكل كبير، من عدد وفيات الأطفال، ويسمح بالتالي بحدوث نسبة عالية في الزيادة السكانية الطبيعية. وهذا الأمر يفسره رافائيل سالاس، ومجمل تقارير صندوق الأمم المتحدة للنشاطات السكانية، لكن، إضافة إلى هذه الأسباب المتعارف عليها علمياً، توجد للزيادة المضطردة في عدد الفلسطينيين في اسرائيل أسباب أخرى ذات أثر فعلي في هذه العملية.

ان للقوانين العامة لتفسير الزيادة الطبيعية في عدد السكان، مقاييس أقل وزناً مما